﴿*وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾

[الإسراء: 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكريم بني آدم على جميع المخلوقات

لمّا قرر سبحانه بالآيات السابقة العبرةَ والمِنَّةَ على المشركين، اعتَرَضَ بذِكْرِ نِعَمِه على جميع الناس تكريمًا لهم على سائر مخلوقاته، كما هو شأنه في القدرة على ما يريد في المفاوتة بين الأمور التي كانت متساوية عند أول خلقه لها، ليستدلّوا بذلك على سهولة الإعادة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرَّمْنَا﴾: أصل (كرم) شَرَفُ الشَّيءِ، يُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ يَكْرُمُ كَرَمًا، أَيْ: شَرُفَ، ورَجُلٌ كَريمٌ؛ أَيْ: شَريفٌ ذو فَضائِلَ[2]، ويَأْتي التَّكْريمُ بِمَعْنَى: التَّفْضيلِ، والكَرَمُ: الفَضْلُ[3]، والكَريم: الصَّفوح، وكارَمَني فكَرَمته أَكْرُمُه: كَنْتُ أَكْرَمَ مِنْهُ، وأَكْرَمَ الرَّجلَ وكَرَّمَه: أَعْظَمه ونزَّهه[4]، والمُرادُ بالتَّكْريمِ في الآيةِ: جَعْلُهُ كَريمًا مُفضَّلًا؛ أَيْ: نَفيسًا غير مَبذولٍ ولا ذليلٍ[5].

2) ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ﴾: (حمل) أَصْلٌ يَدُلُّ على إِقْلالِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيءَ أَحْمِلُهُ حَملًا[6]، والحَملُ ما كانَ في بَطْنٍ أَو على رَأسِ شجرةٍ، وجمعُه: أَحْمالٌ[7]، والحَمولَةُ من الإبِلِ: الَّتي تَحْمِلُ الأَحْمال

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 474، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (كرم).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كرم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 165.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).

على ظُهورها[1]، والمقصود بالحَملِ في الآيةِ: الوضْعُ على المَرْكَبِ مِنَ الرَّواحِلِ[2].

3) ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾: (فضل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى زيادَةٍ في شَيْءٍ؛ مِنْ ذلِكَ: الفَضْلُ: الزِّيادَةُ في الشَّيْءِ[3]، سَواءً أكان مَحْمودًا أم مَذْمومًا، واسْتِعمالُهُ في المَحْمودِ أَكْثَرُ[4]، والمرادُ بالتَّفضيل في الآية: التَّفْضيلُ المُشاهَدُ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ الامتنانِ، وذلكَ الَّذي جماعُهُ تَمكينُ الإنْسانِ من التَّسَلُّطِ على جَميعِ المَخْلوقاتِ الأَرْضيَّةِ بِرَأْيِهِ وحيلَتِهِ، وكَفَى بذلكَ تَفْضيلًا على البَقيَّةِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تكريم الله للإنسان مرهون بإنسانيته

ذكَر اللّه سبحانَه تكريمَه لبني آدمَ، وتفضيلَهم على كثيرٍ من المخلوقاتِ، فقال: ولقد شَرَّفْنا بني آدَمَ قاطِبةً بَرَّهم وفاجِرَهم بأنواعِ الشَّرَفِ والمحاسِنِ الكَثيرةِ، وبما أنعَمَ اللّهُ تعالى عليهم مِن النِّعَمِ الظّاهرةِ والباطِنةِ التي لا يُمكِنُ لهم حَصرُها؛ ومنها تَمييزُهم بالعَقلِ، وتَسخيرُ المخلوقاتِ لهم، وحَملُهم في البَرِّ على ظُهورِ الدَّوابِّ وغَيرِها مِن المَراكِبِ، وفي البَحرِ على ظُهورِ السُّفُنِ والقَوارِبِ، ورَزَقْناهم مِن سائِرِ ما يستلذّونَه وينتَفِعونَ به، كأنواعِ المآكِلِ والمشارِبِ، وفضَّلْناهم على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ تَفضيلًا عَظيمًا؛ وذلك بما منَحَهم اللّهُ من النِّعَمِ والخَصائِصِ التي لم يُعطِها لِغَيرِهم من مَخلوقاتِه[6].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 165.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والرّاغب، المُفردات: (فضل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 473، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 295، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 463.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَلَقَدْ﴾ ودلالتُها:

فضل الله على النّاس أجمعين مؤمنهم وكافرهم

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بحرف الواو الدّالّة على العطف؛ لأنّه تعالى لمّا ذَكَر ما امتنّ به على المشركين، من إزجاء الفُلْكِ في البحر ومن تنجيتهم من الغرق؛ اعتَرض بذِكْر نعمته على جميع النّاس فذَكر المِنَّةَ عليهم بتَكْرِمَتِهم ورِزْقِهم وتفضيلِهم[1]، وهذا يُشبه التَّذييلَ لأنّه ذَكَرَ به ما يشمل ما تقدم[2]، وفائدة التذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّل، وإبرازُ حُكمِه في صورةٍ كلّيّة[3].

دلالة تعدُّد المؤكِّدات في الآية:

المبالغة في تأكيد تكريم بني آدم

اتّصل حرف (اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بحرف (قد)، وتسمّى هذه اللّام باللّام الموطِّئَةِ للقَسَم، ومعنى ذلك أنّه لولا هذه اللّام لم يُعلم أنّ في الكلام قَسَمًا مُقَدَّرًا، فقد مهّدت له الجواب؛ ولذا تُسمَّى ممهِّدةً ومُؤْذِنةً[4]، وقد دخلت هذه (اللّام) على (قد) الدّالّة على التحقيق مبالغةً في التّأكيد، وكَثُر في الكلام اقترانُ جملة جواب القَسَم بـ(قد)؛ لأنّ القَسَم يُهيّئ نفس السّامع لتوقّع خبرٍ مُهمٍّ فيُؤتى بـ(قد)؛ لأنّها تدلّ على تحقيق أمرٍ مُتوقَّع، والغرض من تأكيد هذا الخبر بكلّ هذه المؤكدات هو الامتنان بالتّأكيد على تكريم بني آدم قاطبةً تكريمًا شاملًا لبَرّهم وفاجِرهم.

دلالة الفعل الماضي ﴿كَرَّمْنَا﴾:

تحقيق معنى التكريم واستمراره في ذرّية بني آدم

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ التعبيرُ بالفعل ﴿كَرَّمْنَا﴾ بصيغة الماضي تأكيدًا لتحقيق التّكريم الذي دلّ عليه دخول حرف التحقيق (قد) عليه، فتكريم جنس بني آدم مُتحقِّق

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 84.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.
(4) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/ 173.

ابتداءً من تكريم أبيهم آدم ﷺ ووصولًا إلى تكريم جميع ذرّيته قاطبةً تكريمًا شاملًا لبَرِّهم وفاجرهم.

سرُّ إيثار صيغة ﴿كَرَّمْنَا﴾ على (أكرمنا):

في زيـادةِ المبَنى زيادةٌ في المعنى

أوثِرَ استعمالُ صيغة ﴿كَرَّمْنَا﴾ على (أكرمنا) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ لأنّ صيغة (فعّل) أكثر إفادة لتكثير الفعل والمبالغة فيه من (أفعل)، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: 23]، فتَغايُرُ المبنى يستلزم تغايُرَ المعنى.

دلالة إسناد فعل التَّكريم إلى ضمير العظمة:

استـحـضـار عظمة الخالق في التفضيل بين مخلوقاته

أُسْنِدَ فعلُ التَّكريم (كرَّم) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إلى الضمير (نا)؛ للدّلالة على العظمة وعُلوّ القَدْر وتنزيله منزلة الجمع، لتعدّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، فإنّ مثل هذا التّعبير يعبّر به الملوك والعظماء النافذ أمرهم ونهيهم، وفيه أيضًا إدخالُ المهابةِ في قلوب العباد، فالخالق عظيمٌ في جميع أفعاله من الخلق والتّكريم وغيرها.

معنى التّكريم في الآية:

تـكـريـم الـنّـوع الإنـسـاني على غيره من الأنواع

نُسِب التّكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إلى عموم بني آدم، والمُراد ببني آدم جميع النوع، فالأوصاف المُثبتة هنا إنَّما هي أحكام للنَّوع من حيث هو كما هو شأن الأحكام التي تُسند إلى الجماعات، وقد فضّل الله جنسَ بني آدم قاطبةً بَرَّهم وفاجِرَهم على جميع الأجناس الأخرى بفضائلَ ومحاسنَ جمّة لا يحيط بها نطاق الحصر، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرّف في مخلوقات الأرض بوجوهٍ عظيمةٍ لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 399.

سرُّ إيثار الجمع ﴿بَنِيٓ﴾ على (أبناء):

ارتباط القلّة والكثرة بالوزن الصَّرفيّ للكلمة

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ اختار الذِّكْرُ الحكيمُ الجمعَ ﴿بَنِيٓ﴾ على (أبناء)، وهذان الجمعان يشتركان في أصل الاشتقاق، ويختلفان في الصيغة الصَّرفيّة ودلالتِها، فبني و(بنو في الرفع) أصلها بنون وهو مُلحقٌ بجمع المُذكّر السّالم، فإذا أضيف المُذكَّر السّالم والمُثَنَّى تُحذف النّون فتصير بنو آدم وبني آدم، وهو أكثر من (أبناء) من حيث العددُ، وذلك لأنّ أبناء على وزن (أفعال)، وهو من صيغ جموع القِلّة: (أفعُل، أفعال، أفعلة، فِعلة)، بينما لفظ (البنون) يدلّ على الكثرة، فمثلا بنو آدم كثير، ولم يَقُلْ: (أبناء آدم، وكذلك بنو إسرائيل كثير)، ولم يَقُلْ: (أبناء إسرائيل).

فائدة التصريح باسم ﴿ءَادَمَ﴾ عليه السلام:

تكريمُ الآباء تكريمٌ للأبناء

صُرِّحَ باسم ﴿ءَادَمَ﴾ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ لتذكير بَنيهِ بنعمة الله على أبيهم، فأوّلُ مَنْ أَظهَر الله تكريمَه من جنس الإنسان هو آدم عليه السلام، فقد خلقه الله ﷻ بيده، ونفخ فيه من روحه، وأَسجَد له ملائكتَه، وأسكنَه دارَ كرامته ... إلخ، ثمّ سرى هذا التكريمُ في ذُرِّيَّتِهِ بِناءً على أنّ تكريمَ الآباء تكريمٌ للأبناء وتشريفٌ لهم.

دلالة حذف أوجه التكريم:

ذِكْرُ أصلِ التكريم دون أفراده قصدُه العموم

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وردَ ذِكْرُ تكريمِ جنس بني آدم بأن جعلهم ذوي كرم؛ أي: شرف ومحاسن جمّة لا يحيط بها نطاق الحصر، وقد اختلف العلماء في تحديد وجوه التكريم؛ فقيل بالعقل، وقيل: بتناولهم الطعام بأيديهم لا بأفواههم كسائر الحيوانات، وقيل: بالنُّطق، وقيل: بتعديل القامة وامتدادها، وقيل: بالمطاعم واللَّذّات، وقيل: بحُسْن الصورة...إلى آخره، والكلّ في

الحقيقة على سبيل التمثيل لا غير[1]، وهي كلّها من التكريم الذي أكّدت الآية على أصله دون ذكر أفراده.

والنكتةُ في عدم التصريح بها هي إفادةُ العموم، والاقتصار على إثبات معنى التكريم لإفادة الوجود المُجرّد في الشيء دون التّعرُّض للمعمول[2]، وإذا كان الكلام مُنصَبًّا إلى غرضٍ من الأغراض؛ جُعل سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَح[3].

دلالة الواو ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾:

عـطـف بعـض أفـراد التكريم تنويهًا بفضلها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الاقتران، فبعد أن ذَكَر الله سبحانه تكريمَ بني آدم على سبيل العموم، عَطف عليه بعض أفراد التكريم من باب ذِكْر الخاصّ بعد العامّ للتنويه بفضله، فالله ﷻ حمل الإنسان في البَرِّ والبَحْرِ على أكباد رطبةٍ وأعواد يابسةٍ من الدَّوابّ والسّفن، فالمحمول عليه مُقدَّر بقرينة المقام، ودلالته على التّكريم واضحة؛ إذْ لا يثبت لشيء من الحيوانات سواهم.

دلالة الفعل الماضي في ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾:

تفضيل الإنسان بـركـوب الـبرّ والبحر

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ التّعبيرُ بالفعل ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ بصيغة الماضي للإشارة إلى قِدم تسخير البرّ والبحر للإنسان، وذلك لأنّ الإخبار عن الشّيء بصيغة الماضي يقتضي وقوعَ الفعل وتحقُّقَه، فتكريم جنس بني آدم بركوب البرّ والبحر مُتحقِّق وما زال الإنسان يُطوّر في المراكب بأنواع السُّفن والغوّاصات والعبّارات.

دلالة إسناد ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ إلى (نا):

أُسنِد في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فعلُ التَّكريم

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 8/ 112.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

استحضار عظمة الخالق في تسخير البرّ والبحر للإنسان

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ إلى ضمير (نا) للدلالة على العظمة وعلوّ القَدْر وتنزيله منزلةَ الجمع، فالخالق العظيم هو مَنْ سخّر البرّ والبحر لركوبِ الإنسان والانتفاعِ بهما ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: 13 - 14].

الاستعارة في ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ﴾ وبلاغتها:

إلهام اللهِ الإنسانَ ركوبَ الدوابّ والسّفن

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ استعارةً تصريحيَّةً، لأنّ الحَمل في البحر هو الحصول في داخل السفينة، وإطلاق الحمل على ذلك الحصول استعارة من الحَمل على الراحلة وشاعت حتى صارت كالحقيقة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقّة: 11]، ومعنى حمل الله الناس في البحر: إلهامه إيّاهم استعمال السّفن والمجاذيف، فجعل تيسير ذلك كالحمل[1]، كما يمكن القول: إنّ الحمل في البحر مَجازٌ علاقته المكانية، فالإنسان لا يركب البحر؛ بل السفينةَ التي تمخر عُباب البحر.

معنى حرف الجرّ ﴿فِى﴾:

حمل الإنسان على أكباد رطبةٍ وأعوادٍ يابسة

في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ جاء استِعمالُ حرفِ الجرّ ﴿فِى﴾ الدّالّ على الظّرفيّة المكانيّة، فالبرّ والبحر كالظّرف يحتويان الإنسانَ الرّاكب فيهما.

معنى الواو في ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾:

عطف بعض أفراد التكريم تنويها بفضلها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الاقتران، فبعد أن ذَكَر اللّه سبحانه تكريمَ بني آدم على سبيل العموم، عَطف عليه بعضَ أفراد التكريم من باب ذِكْر الخاصّ بعد العامّ للتنويه بفضله، فالله ﷻ إضافة إلى ما سبق من أنواع التكريم ألهم الإنسان أن يَطعم ما يشاء مما يروق له، وجعل في الطُّعوم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 165.

أماراتٍ على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثرَ مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها[1].

دلالة الفعل الماضي ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾:

رزق الإنسان مضمون من الحياة إلى الممات

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغةِ الفعلِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ الرِّزقَ قد تَحَقَّقَ، فاللّٰه الكريم رَزَقَ الإنسانَ منذ أن أوجده، فرَزَقَ الإنسانَ الأوّلَ آدمَ عليه السلام من ثمار الجنّة الكثيرة، ثمّ رزَقَه من خيرات الأرض المباركة بعد نزوله إليها، وما زال يَرزق الإنسانَ من الطيّبات، ويفيض عليه من أنواع الأطايب والثّمار، وضَمِنَ له رِزْقَه حتّى يتوفّاه.

دلالة إسناد الفعل ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾ إلى (نا):

استحضار عظمة الخالق في ضمان رزق الإنسان

أُسنِد في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فعلُ التَّكريم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على العظمة وعلوّ القَدْر وتنزيله منزلة الجمع، فالخالق العظيم هو مَن يرزقهم، ولا رازقَ لهم سواه ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [المُلك: 21].

معنى حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُه:

تشويق الإنسان للجنّة برزقه من الطيّبات

ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ استعمالُ حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾، ويَحتمِل في هذا السّياق أن تكون بيانيَّةً، بمعنى بيان جنس الرزق؛ وهو الطيّبات، كما يَحتمل أن تكون تبعيضيَّةً، فاللّٰه عزّ وجلّ رزقَ الإنسانَ في هذه الدّنيا بعض الطيّبات تشويقًا له للسعي على الحصول على الطيّبات كلّها في الدّار الطيّبة وهي الجنّة.

معنى (أل) في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

عُرّف لَفْظُ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 165.

تعريف الجنس يقتضي العموم

بأداةِ التَّعريفِ (أل) الدّالّة على تعريف الجنس المُقتضي للعموم؛ أي جنس الطيّبات، فقد فضَّل الله الإنسانَ بأنواع الأطعمة والمستَلَذّات، ولا يتَّسع غيره من الحيوان في الرِّزق اتّساعَه لأنّه يكتسب المال ويلبس الثّياب ويأكل المُرَكَّبَ من الأطعمة بخلاف الحيوان، فإنه لا يكتسب ولا يلبس ولا يأكل غالبًا إلا لحمًا نيّئًا وطعامًا غيرَ مركَّبٍ[1].

دلالة الجمع في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

كـثرة الطيّبات التي فُضِّلَ بها الإنسان

جاء لَفْظُ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بصيغة الجمع، والنّكتة في ذلك الدّلالةُ على تكثير الطيّبات التي فضّل الله بها الإنسان على سائر المخلوقات، خاصّة أنّ هذا الجمع مُحلًّى بـ(أل) الجنسية الاستغراقية التي أفادتِ استغراقَ أصنافِ وأوصافِ الطيّبات من زروعٍ وثمارٍ، ولحومٍ وألبانٍ من سائر أنواع الطُّعوم والألوان المُشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي[2].

دلالة الواو في ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾:

زيادة التَّفضيل على أنواع التكريم

عُطف قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران، فبعد أن ذَكَر الله سبحانه بعضَ صورِ تكريم بني آدم على سبيل العموم، عَطَف عليه التّفضيلَ على كثير من المخلوقات، زيادةً ومبالغةً في التكريم.

دلالة الفعل الماضي ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾:

قِـدَمُ تفضيل الإنسان منذ خلقه

جاء في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الفعلُ ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ بصيغة الماضي، وذلك للإشارة إلى تحقّق

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 85.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 97.

تفضيل الإنسان منذ خَلْقِه، فقد فضّل الله الإنسان الأوّل آدمَ عليه السلام بالتّعليم، وفضّله بإسجاد الملائكة له تكريمًا وتشريفًا.

دلالة إسناد ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ إلى ضمير العظمة:

عَظَمَة الخالق في التفضيل بين مخلوقاته

أُسنِد في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فعلُ ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على العَظَمَة وعلوّ القَدْر وتنزيله منزلة الجَمع، فالخالق العظيم هو مَن فضّل الإنسان على باقي المخلوقات بأن خَلَقَه بيدِه، ونَفخ فيه من روحه، وأَسْجَد له ملائكتَه، وأسكنَه دارَ كرامتِه.

معنى حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالته:

علوّ مرتبة الإنسان على مراتب المخلوقات الأخرى

في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ آثر النَّظم الحكيم استعمالَ حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالّ على الاستعلاء، فالله ﷻ رَفَع وأَعْلى مرتبةَ الإنسان على مراتب المخلوقات الأخرى، وجعله أرفعَ منها قَدْرًا وشَرَفًا وعِلْمًا ورِزْقًا، فسخَّر المخلوقات الأخرى له لينتفع بها في ركوبه ومطعمه وملبسه...إلخ.

دلالة تنكير ﴿كَثِيرٍ﴾:

دلالة التنكير على التكثير

جاء في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ لفظ ﴿كَثِيرٍ﴾ نكرةً، والغرض البلاغي من التنكير فيها هو التّكثير كما يُشعِر به السّياق، فقد فضّل الله الإنسان على سائر الحيوانات والجمادات، وما أكثرَ عددَها وأنواعَها.

معنى تفضيل الإنسان على كثير من المخلوقات:

وجود مخلوقات غير مُفضَّلٍ عليها بنو آدم

ورد في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ استعمالُ لفظ ﴿كَثِيرٍ﴾ في الآية، وقد اختَلَف العلماء في معنى الكثرة، فذهب بعضهم إلى أنّ كثيرًا هنا بمعنى (كلّ)، وردّه بعضهم بأنّه وإن كان واقعًا في اللغة إلّا أنّه بعيد عن سياق الآية، فلا فائدة من ذِكْره، وذهب بعضهم إلى أنّ لفظ ﴿كَثِيرٍ﴾ في الآية مُرادٌ منه

التقييد والاحتراز والتعليم الذي لا غرورَ فيه، فيُعلم منه أن ثَمّ مخلوقاتٍ غير مفضَّل عليها بنو آدم، تكون مساويةً أو أفضَلَ إجمالًا أو تفصيلًا، وتبيينُه يُتَلقّى من الشريعة فيما بَيَّنَتْه من ذلك، وما سَكَتَتْ فلا نبحث عنه، فنسبة التّفاضل بين نوع الإنسان وأنواعٍ من الموجودات الخفيَّة كالملائكة والجنّ ليست مقصودة هنا؛ وإنّما تُعرف بأدلَّةٍ توقيفيَّةٍ من قِبَل الشريعة[1].

معنى حرف الجرّ (من):

بيان الجنس الذي فضّل عليه الإنسان

استُعمل في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ حرفُ الجرّ (من)، ومعناها هنا البيانُ، بمعنى بيان جنس المُفضَّل عليهم وهم المخلوقات.

دلالة التعبير بالاسم الموصول (مَن):

تغليب العقلاء على غيرهم

عُبّر في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بالاسم الموصول المشترَك (مَنْ) الموضوع أصالةً للدّلالة على العاقل مُفردًا كان أو مُثنًّى أو مجموعًا، مُذكَّرًا أو مُؤنَّثًا، غير أنّ السّياق يقتضي تفضيلَ الإنسان على كثير من المخلوقات من غير العقلاء، فجاء النَّظْمُ بالاسم الموصول الموضوع للعاقل تغليبًا للعقلاء على غيرهم.

دلالة الفعل الماضي ﴿خَلَقْنَا﴾:

قِدَمُ تفضيلِ الإنسان منذ خلقه

أُوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ استعمالُ الفعل ﴿خَلَقْنَا﴾ بصيغة الماضي للإشارة إلى أنّ قدم الخلق، فالإخبار عن الشيء بصيغة الماضي يقتضي كون المُخبَر عنه مُتقدِّمًا على ذلك الإخبار[2].

دلالة إسناد ﴿خَلَقْنَا﴾:

الله خالق كل شيء

أُسنِد في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

الفعل ﴿خَلَقْنَا﴾ إلى ضمير العظمة للدلالة على أن ما أُسنِد إليه أمر عظيم، وصدور عظام الأمور يدلُّ على كمال القدرة والحكمة، وأن حُكمه مُطاعٌ لا يتخلّف شيء عن إرادته، وفيه أيضًا التنويهُ بشأن الخلق، فالله العظيم هو خالق كل شيء، وهو وحده القادر على التّفضيل بين مخلوقاته، ألا له الخَلْقُ والأمرُ.

دلالةُ المفعول المُطلَق ﴿تَفْضِيلًا﴾:

بلاغة المصدر في توكيد عامله

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإتيانَ بالمفعول المطلَق ﴿تَفْضِيلًا﴾ لإفادةِ ما في التنكير من التعظيم؛ أي: تفضيلًا كبيرًا[1]، فَضْلًا عن أنّ المفعول المُطلَق مُؤكِّد لعامِلِه، فأفاد التأكيدَ على تفضيل الإنسان على كثيرٍ من المخلوقات.

سرُّ افتتاحِ الآية بالتكريم واختتامِها بالتفضيل:

التكريمُ بأمور خِلْقيَّة طبيعية ذاتية، والتفضيلُ بالعَقْلِ

افتُتح قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بالتكريم ﴿كَرَّمْنَا﴾، واختُتم بالتّفضيل ﴿تَفْضِيلًا﴾ لنكتة بلاغية، وهي إفادةُ العمومِ والخصوصِ، فالتكريمُ منظورٌ فيه إلى تكريمه في ذاته على سائر الحيوانات بأمور خِلْقيَّةٍ طبيعيةٍ ذاتيةٍ مثل النطق والخطّ والصورة الحسنة والقامة المديدة، والتفضيلُ منظورٌ فيه إلى تشريفِه فوقَ غيره بالعقلِ الذي به استصلاحُ شؤونه ودفعُ الأضرار عنه، وبأنواعِ المعارف والعلوم، واكتساب العقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَحْرُ واليَمُّ:

دلالة البحر على النِّعَم، واليمّ على النِّقَم

اليمّ والبحر يؤدّيان معنى متقاربًا في اللغة بمعنى المكان الواسع المليء بالماء، ولكن الاستعمال القرآني لهذيْن اللَّفظيْن يدلّ على وجود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 375.

فروق بينهما؛ فقد ذُكر لفظ (البحر) في القرآن ثلاثًا وثلاثين مرّةً، ودائمًا يأتي هذا اللفظ تذكيرًا بما أسبغه الله على عباده من النِّعم، مثل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97] و﴿*وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 63] ... إلى آخره.

أما لفظ (اليمّ) فقد ذُكر ثماني مرات في القرآن، وأحيانًا ما يُذكر في سياق التخويف والعقوبات كما في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: 40]، و﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»